الصرب بين البيزنطيين والبلغار

د. عادل عبد الحافظ حمزة(*)

أصل الصرب :

قيل فى تفسير كلمة " الصـرب " إنهـا ترجـع إلى أصـل قوقـازى هـو لفـظ "صير" Ser ، بمعنى رجل ، مع إضافة علامة الجمع التى تلحق بآخر الكلمة وهـى "بى" ، فتصبح " صربى " : أي " رجال " . وقد ورد اسـم الصـرب للمـرة الأولى فى القرن السادس الميـلادى فـى كتابـات الجغرافـى فيبيـوس سكويسـبوس Vibius Sequespus(١) فى حين يذكر بعض البيزنطيين أن كلمة " صرب " تعنى فى لغـة الرومان " العبيد " وأنها باللغة الدرجة " صربولا " Serbula بمعنى الذيـن يلبسـون النعال الحقيرة(٢) ويبدو أن هذا التفسير قد ألحق بالصرب للحط من شأنهم ، فـى ضوء خضوع الصرب للبيزنطيين ردحا طويلا من الزمن .

أما عن أصل الصرب فقد أرجعه كثير مـن المؤرخـين إلى السـلاف Slaves الجنوبيين أو اليوجسلاف(٣) . وهؤلاء من العناصر الآسيوية التـى تنتمـى لمجموعـة الشعوب الأوربية القديمة الذين قطنوا المنطقة الواقعة خلف جبال الكربات شمالاً مـا بين نهرى الفـيزل والدينيـير(٤) وينقسـم الصـرب داخليًـا إلى قسـمين : صـرب يوجسلاف، يبدو أنهم من مجموعة سلافيه تشمل (السلوفان والكروات والصـرب والبلغار) ومجموعة الشرق الروسـية(٥) غـير أن الصـرب انشـقوا عـن السـلاف ، وظهـروا فـى بدايـة القـرن السـادس الميـلادى فـى ألمانيـا بمنـاطق " مـاجد بـورج " Mageburg وانهالت Anhalt(٦) حيث عاشوا بين نهـرى الإلـب Elbe والسـال

---

* أستاذ مساعد بكلية الآداب – جامعة المنيا .

Sale(٧) ونتيجة لضغط الأقار أوغل الصرب وكذلك الكروات فى تراقيا ومقدونيا(٨) .

وكان أن حدث صراع على الميراث بين ولدى رئيس الصرب فى أوائل القرن السابع ، فلجأ أحدهما مع أتباعه إلى الإميراطور البيزنطى هرقل (٦١٠ - ٦٤١هـ) ليساعدهم فى للاستقرار فى مكان جديد . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى وجدها فرصة ليستغل هؤلاء ضد الآفار الذين يقلقون الإمبراطورية البيزنطية ، مما يوضح أن هذه الجموع الصربية كانوا فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم قادرين على صد الآفار بدليل استجابة الإمبراطور البيزنطى لطلبهم(٩) . على أية حال فإن الإميراطور وطن جزءًا من الصرب فى الأماكن التى طرد الآفار منها وخاصة إقليم تسالونيكا Thessalonica ، وفى المنطقة شمالى جبال أو لمبياس Olympus وهى التى أطلق عليه " صربيليا " Serblia . ويتعجب بعض المؤرخين من قدرة هذا المكان على استيعاب تلك الأعداد من الصرب(١٠) وأن كان يمكن القول أن أعداد تلك الجموع لم تتعد بضعة آلاف ، فضلاً عن إن جزءًا منهم فقط هو الذى استقر فى المكان الجديد وليس كل الصرب كما سبق القول .

وقد مكث هذا الفريق من الصرب فترة ليست طويلة ثم عاودهم الحنين للعودة مرة أخرى إلى أماكنهم الأصلية حيث بقية بنى جلدتهم يعيشون فيما بين نهرى الآلب والسال إلى جانب الهنغاريين ، وذلك فى المنطقة التى يطلق عليها اسم بوجكى Bijki المجاورة لكرواتيا التى تسمى البيضاء(١١) . ولكن حدث أثناء عودتهم - عند عبورهم نهر الدانواب - أن عدلوا عن رأيهم ، وفكروا فى العودة مرة ثانية إلى أحضان الدولة البيزنطية . لذلك أرسل أميرهم بورجا Porga إلى الإمبراطور البيزنطى هرقل يطلب منه من الصرب منطقة أخرى يستقرون فيها ، فسمح لهم الإمبراطور البيزنطى بالاستقرار فى إقليم نسب إليهم وعرف باسم بلاد الصرب serbia بالإضافة إلى عدة مناطق تحمل أسماء الباجانى والزاكلومى

Zachlumi وتربونيا Terbounia والكانـاليت Kanalites وهـذه الأقـاليم كـانت خاليةبعد ما هجرها أهلها من الرومان إمام الزحف السلافى(١٢).

ويبدو كما يرى بعض الباحثين أن الذى كـان قـد دفـع الصربيـين إلى اتخـاذ قرار العودة إلى بلادهم هو أن الأرض التـى حـاولوا الاسـتقرار فيهـا كـانت مجدبـة فقيرة وأنهم لم يفلحوا فى أن يعايشوا أهل البلاد الأصليين من اليونانيين فضلاً عمـا ألقى عليهم من بعض الالتزامات ، مما دفعهم إلى الاتجاه نحـو الدانـوب . هـذا مـن ناحية ؛ ومن ناحية أخرى ربما دفعهم إلى تغيير رأيهم عند وصولهـم إلى الدانـوب ، و التفكير فى الاستقرار فى شبه جزيرة البلقان ، أنهم أدركوا أن هناك أرضـا لهـم، وأن أتباعهم وذويهم من القبائل الأخرى استقروا فيها(١٣) .

وهكذا أخذت قوافل الصرب تتجه نحو المناطق الآنفـة الذكـر التـى منحهـم إياها الإمبراطور البيزنطى هرقل فى أوائـل القـرن السـابع الميـلادى . غـير أنهـم لم يقنعوا بما صار تحت أيديهم من بلاد ، وإنما تطلعوا إلى غـرب أوربـا ، شـأنهم فـى ذلك شأن غيرهم من الشعوب التى استقرت فى شرق أوربا ، مثل الهنغـاريين بعـد ذلك . على أى حال فإن هنـاك إشـارات فـى المصـادر تشـير إلى هجـوم الصـرب خلال القرن الثامن الميلادى على إقليم ثورنجيا سنة ٧٨٢م ، حيث احتكوا بقـوات الفرنجة(١٤) ، التى تصدت لهم وجعلت حركتهم التوسعية تقتصر على شبه جزيرة البلقان . وكان أن استطاعوا فى بدايات القرن التاسع الميلادى احتلال بعض المـدن وتدمير ما قاومهم واعترض سبيلهم ، مثل سـنجو دينـوم Singidunum "بلجـراد " Belgrade وفيمينا سيوم Vimindeum وكوستولان Kostolan على نهر الدانوب، وديوشيا Diociea وتيتـو جـراد Titograd فـى مونتنجـرو Mentenegro وسـالونا Salona التى انقسمت إلى دلمـا شـيا(١٥) هـذا بالإضافـة إلى أن الصربيـين فرضـوا سيطرتهم على القبائل السلافية بين نهرى الألب والساله(١٦) واستقروا فـى تلـك المنطقة حيث كونوا دولة يحدها مـن الشـمال الغربـى كرواتيـا Croatia والبوسـنة

Bosnia ومن الغـرب هرسـكجوفينا Hercegovina ومنونتنجـرو ، ومـن الجنـوب العربى البانيا Albania ومن الجنوب مقدونيا ، ومن الشرق بلغاريا ورومانيا ، ومن الشمال المجر(١٧) ، وكانت جبال الألب الديناريه تحوط بلاد الصرب من الغـرب، ومن الشمال جبال الألب الألبانية " بروكلتيـى " Prokletige ، وجبـال شـار فـى الاتجاه الجنوبى الغربى وجبال البلقان فى الشرق ، بالإضافة إلى نهر الدانوب الذى يتدفق من الشمال إلى الجنوب ليفصل بين يوغسلافيا ورومانيا(١٨) ومن ثم تكون دولة الصرب قد امتدت من بلجراد إلى شاطئ البحر الأدرياتى(١٩) .

هذا عن المكان الذى استقر فيه الصرب ، أما عن لغتهم فهى تشـبه إلى حـد كبير اللغـة الكرواتيـه باسـتثناء بعـض اختلافـات لغويـه فـى المفـرادات واسـتخدام الأحرف الهجائية المختلفة . والكروات يستخدمون الحروف الرومانيـة اللاتينـة فـى حين أن الصرب يستخدمون الحروف السيرليه و النصوص الأولى التى وجدت فـى اللغه الصربية والكرواتية يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى(٢٠) .

الصراعات الداخلية بين أمراء الصرب :

وهكذا لم يكن ينتصف القرن التاسع الميلادى إلا وكانت الشعوب والقبـائل الصربية قد كونت كيانًا سياسيًا وعسكريًا لها ، وتلقب أميرهم الذى تـولى القيـادة السياسية بلقب زوبان Zupan (٢١) وسرعان ما غدت مجموعة مدن صربيا عامرة بالسـكان ، مثـــل دسـتنيكون Destinikon وتزرنـا بوسـكى Tzernabouskei ومجـيرتوس Megyretous ودرسـنيك Dersneik ولسـنيك Lesnik وسـالينس Salines ، وفى إقليم البوسنة Bosona توجد مدن كاتيرًا Katera وغيرها(٢٢) .

ولاشك فى أن هذا المجتمع الصربى الأخذ فـى النمـو والاسـتقرار قـد واجـه مشاكل سياسية داخلية لعدم استقراره استقرارًا كاملاً مـن ناحيـة ، ووجـود كثـير من الطامعين فيه من ناحية ثانية ، ولتطلع معظم الأمراء إلى السلطة من ناحية ثالثة.

وقد أعقب موت أمير الصرب بورجا Porga ابنه ثم حفيده ، ثم توالى الحكم فى هذه الأسرة واحد بعد الآخر . وقد شهد النصف الأخير من القرن التاسع اشتداد الصراع حول الحكم بين الأبناء بعضهم وبعض ولأخوة والأعمام ، مما أتاح فرصة للبلغار للتدخل فى شئون دولة الصرب .

ويمكن القول أن أمراء البيت الحاكم فى صربيا ، أعطوا الفرصة للبلغار للتدخل ، ومن ثم زاد لهيب الصراع بين أفراد ذلك البيت . ولم يقف الصراع عند هذا الحد ، فقد تدخلت بيزنطة هى الأخرى ليس ضد بلاد الصرب فحسب ، بل ضد التدخل البلغارى أيضًا ، حيث أرسل الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول Romanus 1 من القسطنطينية الأمير زكريا من بربيسلاق بن مونتيمير الصربى لينتزع الحكم من بولس بن برانواس أمير الصرب الذى ساانده الأمير سيمون البلغارى ، وبذلك يكون الإمبراطور البيزنطى قد حاول الحد من النفوذ البلغارى فى بلاد الصرب . وهكذا صارت الحرب الأهلية بين أمراء الأسرة الحاكمة فى الصرب ، عبارة عن حرب بين البيزنطيين والبلغار على أرض صربية ، وقد انتهت هذه الحرب ، بانتصار بولس بن برانوس على زكريا بن بربيسلاف ، فسلم الأمير بولس غريمة الأمير زكريا للبلغار الذين أو دعوه فى السجن(٢٣) .

على أن الأمير بولس لم يلبث أن ضاق ذرعًا بالسيطرة البلغارية عليه ، ومن ثم لم يستمر على ولائه للبلغار . وعندما أدرك البلغار ذلك فكروا فى إرسال الأمير زكريا المسجون عندهم وغريم الأمير بولس ، ليحل محله فى صربيا ، وكان أن استولى الأمير زكريا على الحكم فى صربيا بمساندة البلغار لمدة أربع سنوات (٩٢٠ - ٩٢٤هـ) . غير أن الأمير زكريا لم يلبث بدوره أن سئم سيطرة البلغار عليه ، فأراد التخلص منهم . ولما أحس البلغار بذلك رأوا أنه لابد من تعديل سياستهم ، فعينوا على صربيا الأمير تزيسلاف Tzeeslav بن كلوينيمير البلغارى الأم الصربى الأب ، وسليل الأسرة الحاكمة الصربية ، وأرسله الأمير سيمون

البلغارى صحبة جيش بلغارى . وقد دبر الأمير سيمون مؤامرة قبض بمقتضاها على أمراء الصرب كلهم ، وكان من بينهم الأمير تزيسلاف نفسه . أما الأمير زكريا حاكم الصرب ، فقد فر إلى كرواتيا . وقد مكث هؤلاء الأمراء فى بلغاريا بضع سنين إلى أن استطاع تزيسلاف الهروب من بلغاريا ، ودخل صربيا من مدينة بريسلاف واستولى عليها . وعندئذ وجد البلاد وقد هجرها أهلها ، بحيث لم يبق فى صربيا إلاّ عددًا قليلاً من الناس يعيشون على الصيد . ولما كان تزيسلاف له تجارب سابقة مع البلغار ، وعلى يقين من رغبتهم فى السيطرة الجاحة على صربيا، فإنه لم يلبث عندما دخل صربيا أن تخوف من هجوم بلغارى عليه ، الأمر الذى دفعه إلى طلب المساعدة العسكرية من الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول (٩١٩ - ٩٤٤م) على أن يكون تابعًا له . ولاشك فى أنها كانت فرصة عظيمة للإمبراطور البيزنطى ، تمكنه من السيطرة على صربيا وأمرائها ، فأرسل قوات عسكرية لأمير الصرب بريسلاف . وعندما شعر الصربيون الذين فروا من بلادهم إلى بلغاريا وبيزنطة وكرواتيا بسبب الحرب الأهلية من ناحية والهجوم البلغارى البيزنطى من ناحية أخرى بالأمان ، أخذوا يعودون إلى بلادهم صربيا ، فى حين عمل تزيسلاف (٩٢٧ - ٩٥٠) على النهوض بالعمارة فى بلاده وتوطين الصربيين فيها(٢٤) . وبذلك يكون الصراع البيزنطى البلغارى قد أتخذ من بلاد الصرب ساحة له ومن أمرائها أداة لتدمير هذه البلاد وتشتيت سكانها وتخريب ديارهم وإشاعة الفوضى وعدم الاستقرار بين ربوعها .

الصرب والمسيحية :

كانت القبائل الصربية أيا كان مصدر هجراتها وثنية فى أول أمرها ، وخاصة إذا علمنا أن تحرك هذه القبائل بدأ غالبا قبل القرن السادس الميلادى ، فى وقت لم تكن المسيحية قد انتشرت انتشارًا واسعًا فى شرق أوربا . وبعبارة أخرى فإن القبائل الصربية التى استقرت فى الإمبراطورية البيزنطية أوائل القرن السابع

الميلادى أبان عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) كانت وثنية ، ولم تكن قد اعتنقت المسيحية بعد(٢٥) وقد دفع ذلك الإمبراطور إلى أن يطلب من روما إرسال مبشرين لتنصير الصربيين وليشرحوا تعاليم المسيحية وجوانبها(٢٦) .

وهكذا أخذت الإمبراطورية البيزنطية على عاتقها القيام بعملية تنصير الصرب واستمرت هذه السياسة بعد عهد الإمبراطور هرقل ، إذ يشير بعض المؤرخين إلى أن هناك محاولات فى هذا الصدد بذلت من قبل الإمبراطورية البيزنطيه فى عهد الإمبراطور باسيل الأولى Basil 1 (٨٦٧ - ٨٨٦م)(٢٧) ، وقد واكب ذلك فترة حكم أمير الصرب مونتيمير Montimer الذى اعتنق المسيحية على المذهب الأرثوذكسى عام ٨٧٩(٢٨) . وبذلك أخذت المسيحية تشق طريقها فى المجتمع الصربى خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد(٢٩) وكان أن أخذت الكنائس تظهر فى صربيا اعتبارًا من عهد راستكو Rastko الذى عرف بالقديس سافا Sava ، حيث أسس سنة ١٢١٩م كنيسة أرثوذكسية تحمل اسمه(٣٠) ، وعين نفسه أول أسقف لها ، فضلاً عن تأسيسه عددًا من الأسقفيات الجديدة بعد ذلك(٣١) وكان للقديس سافا طائفة ربطت المسيحية الصربية بالمراكز الدينية التى زارها ، وهى جبل أثوس Athos ، والقدس ، والقسطنطينية، و" ترنوفو " Trnovo وعند وفاته نقل رفاته من بلغاريا إلى الدير الملكى فى ملسيفا Mileseva بصربيا عام ١٢٣٧م(٣٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن صربيا أخذت بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسى ولم يتهاون أمراء صربيا ضد كل من حاول أبعاد الصربيين عن الأثوذكسيه ، وليس أدل على ذلك مما ورد فى الدستور الذى وضعه ستيفن دوشان (١٣٣١ - ١٣٥٥م) بشأن معاقبة كل من يحاول تحويل الرعايا الأرثوذكس إلى البدعة اللاتينية (الكاثوليكية) كذلك الزواج بين الأرثوذكس وأنصاف المؤمنين ، يعنى الكاثوليك . ولا شك فى أن هذا الاتجاه يحمل بين ثناياه

عداء بين ستفن دوشان والبابوية . غير أن هذا العداء كان لا يبدو إلا فى أوقات السلام الصربى فقط ، أما إذا توترت العلاقات بين الصرب والبيزنطيين فإن ستيفن كان يمالئ البابويه(٣٣) على أية حال فإن ستيفن دوشان بذل جهدا كبيرًا لدعم المسيحية الأرثوذكسية الصربية وحسبه أنه أنشأ البطريركيه الصربية(٣٤) .

ولا شك فى أنه بالإضافة إلى جهود أمراء صربيا فى نشر المسيحية بين الصرب لا ننسى دور البيزنطيين فى هذا المضمار . وقد حرصت الدولة البيزنطية على إرسال البعثات التبشيرية إلى صربيا خوفًا من تغلغل النفوذ الدينى البلغارى فيها ، لما هناك من عداء مستمر بين البيزنطيين والبلغار ، وعليه فقد انتشرت المسيحية الأرثوذكسية فى صربيا(٣٥) .

علاقة الصرب بالبيزنطيين والبلغار :

كان للصرب منذ وقت مبكر أطماعهم التوسيعه على حساب جيرانهم مما أوقعهم فى صدام مع هؤلاء الجيران ، وهو ما يشير إليه التاريخ فى موقف شار لمان منهم وسيطرته على بعض القبائل الصربية(٣٦) ويغلب على الظن أن قوات شارلمان لم تصل إلى بلاد الصرب إلا فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، وذلك بعد أن هاجمت بعض القبائل الصربية إقليم ثورنجيا عام ٧٨٢م(٣٧) .

كذلك حدث صدام بين الإلمان وأقوى قبيلة صربية وهى اللوساكيين Luscians (٣٨) ، كما أصطدم التشيك Czechs بالصرب(٣٩) .

وهناك بعض المؤرخين ذكر أن السكسون هجموا على الصرب فى بلادهم فى ربيع سنة ٩٢٩م تقريبًا ، وخاصة على قبيلة الدالمنيزى Daleminzi الصربية(٤٠) .

هذا فيما يخص المناوشات التى حدثت بين الصرب وبعض القوى الغربية . ومن الواضح أنها لم تستمر طويلاً ، وإنما كانت عبارة عن هجمات خاطفه من

الجانبيين ، فهى إذا كانت من جانب الصرب فهى على ما يبدو بهدف البحث عن مكان للاستقرار ، أو البحث عن غنائم ، أو وضع اقتصادى أفضل . وإذا كانت الهجمات من جانب القوى الأوربية الغربية سواء من الفرنجة أو التشيك أو السكسون فهى فى الغالب لاحتواء قبائل الصرب حتى لا تقلقها أو لأسكاتها حتى لا تكرر هجماتها .

أما علاقة الصرب بالدولة البيزنطية والبلغار فقد اختلفت اختلافًا بينًا . ويبدو إن الصرب عاشوا فى وئام مع الإمبراطورية البيزنطية بعد عصر هرقل خلال القرون السابع والثامن والتاسع للميلاد . وانتهج الصرب نفس السياسية تجاه البلغار ، بل كانت هناك - أحيانًا - صداقة قائمة بين الطرفين لأنهما سويا يخشون قوة الإمبراطورية البيزنطية(٤١) .

والذى لا شك فيه هو أن قوة الصرب أقل بكثير من قوة البلغار ، الأمر الذى كان يدفع الصرب إلى التودد للبلغار ، ولكن البلغار كانت لهم أطماع سياسية فى بلاد الصرب ، أدناها إخضاع أمراء الصرب للسيطرة البلغارية ، ومن ثم فإن هناك محاولات بذلت من جانب البلغار لتنفيذ مخططاتهم ضد الصرب . وبدأت أولى هذه المحاولات فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى فى عهد أميرهم برسيام Persiam (٨٣٦ - ٨٥٢م) إذ شنوا حربًا ضد الصرب استمرت قرابة ثلاث سنوات ، وكان أمير الصرب عندئذ هو بلاستيمير Blastimer . غير أن البلغار لم يتمكنوا من الانتصار على الصرب بل حلت بهم الهزيمة ، وبالتالى ذهبت أمال البلغار تلك المرة أدراج الرياح فى محاولة الاستيلاء على بلاد الصرب . ثم كرر البلغار المحاولة مرة أخرى عندما استغلوا الانقسام الأسرى الذى ساد بين الأمراء فى بلاد الصرب والذى نشب بين أولاد بلاستيمير الثلاثة بعد وفاة والدهم، فزحف الأمير البلغارى ميخائيل بوريس Michael Boris بن برسيام لتحقيق آمال والده فى بلاد الصرب وينتقم منهم ، لكن الصرب هزموه هزيمة ساحقة ، وأسروا

ابنه فلاديمير Vladimer . وعندئذ لم يكـن أمـام أمـير البلغـار ميخـائيل إلا التفكـير جديًا فى أمرين هامين هما ؛ إطلاق سراح ابنه من الأسر ، والخروج بجيشـه سـالمًا من بلاد الصرب . لذلك طلب من أمير الصرب مونتيمير أن يفـك أسـر فلاديمـير ، ويحميه بقواته حتى يخرج من بلاد الصرب ، بالفعل أرسل مونتيمير ولديه بورينـاس Borenas وستيفن Stephen ليصحبا الأمير البلغارى ميخائيل وجيشه إلى أن غـادر بلاد الصرب ، ووصل إلى بلاده آمنًا . ويبدو أن الأمير البلغارى اعتبر مغادرته بلاد الصرب دون المساس به وبقواته جميلاً أسداه له الأمير الصربى . وليـس أدل علـى ذلك من إرساله الهدايا الفاخرة للأمير الصربى مونتيمير الذى اعتقد أن ما فعله أمير البلغار يعبر عن صفاء سماء العلاقات بينهما ، وأن ذلك إيذانًا بفتح صفحة جديـدة بينهما . والدليل على ذلك أنه رد على هدايا الأمير البلغارى بإرساله ثمانيـة عشـرة قطعة من الفراء وكلبين وصقرين وعبدين له. غير أن الأمير البلغارى ومن معه مـن أمراء البلغار اعتبروا هذه الهدايا تعبيرًا من أمير الصرب عن ولائـه وخضوعـه لأمـير البلغار ، أى أنها بمثابة إتاوة(٤٢) . على أية حال ترتب علـى هـذا توطيـد العلاقـة بين الصرب والبلغار ، ووصل الأمر إلى زواج الأمير الصربى كلونيمـير Klonimer بن سترويمير من امرأة بلغاريه ، أنجب منها تزيسلاف Tzeaslav (٤٣) .

ومهما يكن من أمر هذه الفترة من العلاقات الصربية البلغارية ، فـإن حكـم الأمير الصربى بطرس بن جوينيكوس بن بلاستيمير (٨٩٢ - ٩١٧م) عاصر فترة حكم كل من الأمير البلغارى سـيمون (٨٩٣ - ٩٢٧م) والإمـبراطور البـيزنطى ليو السـادس Leo VI (٨٨٦ - ٩١٢م) . ويذكـر بعـض المعـاصرين أن الأمـير بطرس الصربى من جانبه ناشد السلام مع الأمـير البلغـاري سـيمون ، كمـا دان - بطرس - بالولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطى ليو السادس . غـير أنـه حـدث بعـد وفاة الأخير وإعلان الوصاية على الإمـبراطور القـاصر قسـطنطين السـابع، أن جـاء الحاكم العسكرى البيزنطى لإقليم دايرًا كيوم ، وكان يدعى ليـو رابدوكـوس Leo

Rhabduchus إلى إقليم باجانى الصربى لينافس الأمير بطرس حول بعض الموضوعات . وقد أزعج ذلك مخائيل أمير زاكلومى (٩١٣ - ٩٢٦م) ، فكتب إلى الأمير سيمون البلغارى يذكر له أن الإمبراطور البيزنطى أرسل إلى الأمير بطرس الصربى يطلب منه مساعدة الصرب للهنغاريين(٤٤) لمحاربة البلغار. ولا شك فى أن ذلك أدى إلى استياء الأمير البلغارى من المكائد البيزنطية ضده ، الأمر الذى ترتب عليه حدوث معركة بين البيزنطيين والبلغار فى ٢٠أغسطس ٩١٧م عرفت بمعركة أخيلو Achelo . ولم يكتف الأمير سيمون البلغارى بهذا بل وجه جهوده العسكرية ضد الأمير بطرس الصربى فأرسل جيشًا بقيادة سيجر يتيس تيودور Sigritzis Theodor ومارمياس Marmais سنة ٩٢٠م . وكانت خطة الأمير البلغارى تستهدف خلع الأمير بطرس من بلاد صربيا وتعيين أمير صربى موال للبلغار ويكون على عداء مع بطرس . وقد وجد البلغار ضالتهم المنشودة فى الأمير الصربى بولس بن برانوس بن مونتيمير بن بلاستيمير الذى كان بطرس قد سمل عينى والده وحتى لا يلجأ البلغار إلى حرب طاحنة مع الصرب تكون نتيجتها الفشل كما سبق ، لجأ البلغار إلى الحيلة والخداع ضد الأمير الصربى بطرس ، فأظهروا له أنهم أصدقاء منذ القدم ؛ وأن هناك روابط ودلائل تشير إلى ذلك ، ولا داعى للتخوف منهم . وبالفعل اطمأن الأمير بطرس تمامًا وقابلهم . وعندئذ خانوا القسم الذى اقسموه على أنفسهم بأنهم لن يخونوه وتنصلوا من تعهداتهم، فقبضوا عليه وخلعوه من الحكم وعينوا بدلاً منه أميرهم الصربى بولس الذى جاءوا به من بلغاريا . أما بطرس فقد أخذه البلغار وسجنوه عندهم حتى مات وهو فى السجن(٤٥) .

وإزاء هذا التدخل البلغارى السافر فى صربيا ، لم تستطع بيزنطة الوقوف مكتوفة الأيدى . فإذا كانت بلغاريا قد فرضت أميرًا صربيًا من قبلها على صربيا ، فإن معنى ذلك الحد من النشاط البيزنطى فى المنطقة أمام انتشار النفوذ البلغارى .

وهـذا مـا لا تحتملـه بيزنطـة : وإمـام هـذه الأعمـال البلغاريـة فـى صربيـا ، قـام الإمبراطور البيزنطى روما نوس الأول (٩١٩ - ٩٤٤م) بإرسال الأمـير الصربـى زكريا بن برييسلاف بن مونتيمير بـن بلاستيمير الـذى كـان مقيمًـا فـى بيزنطـة ، مؤيدًا عسكريًا منها ليحارب الأمير الصربى بولس المعين من قبـل البلغـار ، ودخـل الأميران فى صراع انتهى بانتصار الأمير بولس على الأمير زكريـا المدعـم بمسـاعدة بيزنطية ، وأسره وسلمه لبلغار الذيـن أخـذوه والقـوا بـه فـى السـجن مثلمـا ألقـوا ببطرس من قبل(٤٦) .

لقد حكم بولس بلاد الصـرب ثـلاث سنوات تحـت رعايـة البلغـار ، لكنـه ضاق ذرعًا بالتدخل البلغارى وأعلن العداء لهـم . ولم ينتظـر البلغـار حتـى تتدخـل بيزنطة ، وتسـتغل هـذا العـداء ، لـذا أرسـلت بلغاريـا الأمـير الصربـى زكريـا بـن برييسلاف المسجون عندها ، وقد سبق أن أرسله بولس أسيرًا إليها . على أية حال تمكن زكريا هذه المرة بفضل المساعدة البلغارية من الأنتصـار علـى بولـس وهزيمتـه وطرده من صربيا . وغدا زكريا أميرًا على الصرب تحت السـيطرة البلغاريـة (٩٢٠ - ٩٢٤م) . وفى الصدام بين البيزنطيين والبلغار قرر الأمر زكريا الوقوف إلى جانب الإمبراطور البيزنطى ، فأخذ يرسل المبعوثين إلى أباطرة الإمبراطورية البيزنطيـة أثنـاء حكمه لصربيا تحت رعاية البلغار ، وكافة رسائله إلى الإمبراطور البيزنطى تشير إلى طلب التبعية والخضوع لبيزنطية(٤٧) .

وإذا لم نسلم بما أوردة قسطنطين بورفيجنيتـوس عـن طلـب الأمـير الصربـى الخضوع لبيزنطة ، فإن بيزنطة كانت تتحين الفرصة - بلا شك - للسـيطرة علـى صربيا من حين لآخر . وأيما كان الأمـر أمـام العـداء الـذى أعلنـه الأمـير الصربـى زكريا للبلغار ، كان على أمير البلغار سيمون أن يضع حدا لسياسة الأمير زكريـا . ولم يكن أمامه غير الخيار العسكرى ، لأن البلغار لا ينظرون إلى الصرب بوصفهـم أندادا لهم ، وإنما هم إتباع . ولذا فإنه لم يكن هناك مجال للمفاوضات السياسـية .

وكان الحل الوحيد أمام البلغار هو إخضاع الصرب وأميرهم بالقوات العسكرية . وللمرة الثانية فى عهد سيمون أرسل جيشًا على رأسه ثلاثة من القادة ، يصحبهم أمير صربى هو تزيسلاف ، البلغارى الأم ، الصربى الأب . وهذه القوات فاقت فى عدها وعتادها مقدرة الأمير زكريا العسكرية ، ولذا لم يستطيع الصمود أمامها ففر إلى كرواتيا . ومرة أخرى خضع أمراء الصرب إمام وعود البلغار وخرجوا إليهم ، فقبض عليهم البلغار جميعًا بمن فيهم تزيسلاف نفسه سنة ٩٢٤م تقريبًا ، بالإضافة إلى كثير من أهالى صربيا ، وأخذوهم أسرى . أما الباقون من الصربيين فقد فروا إلى كرواتيا وراء الأمير زكريا ، وتركوا صربيا خاوية ، شبه خالية تمامًا من السكان . وتماديا من البلغار فى قطع الطريق على زكريا وإتباعه من الصرب الذين فروا إلى كرواتيا ، فقد أمر سيمون بإرسال فرقة عسكرية إلى كرواتيا لقتالهم، وحتى لا يفكر الأمير زكريا فى الاستغاثة بهم والعودة إلى صربيا مرة أخرى(٤٨) .

أما تزيسلاف الأمير الصربى الذى كان من المنتظر أن يعينه البلغار أميرًا على صربيا فقد جاءوا به معهم ثم خدعوا به أمراء الصرب وأسروهم جميعًا وهو معهم. وقد عاش بعد ذلك قرابة سبع سنوات فى بلغاريا يتحين الفرصة للعودة إلى بلاده أميرًا . ولم يكن فى إمكان تزيسلاف تحقيق هذا الهدف فى ظل وجود أمير البلغار سيمون لما له من شكيمة ، لذلك ما أن مات الأخير سنة٩٢٧م(٤٩) ، حتى هرب تزيسلاف من بلغاريا ومعه أربعة رجال ودخل صربيا من مدينة بريسلاف ، فاستولى على هذه المدينة . وقد خشى من هجوم بلغارى جديد على الصرب ، ولذا استغاث بالإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول ، وطلب منه قوات عسكرية بيزنطية للمساعدة ، مقابل قيام الأمير تزيسلاف بإعلان التعبيه والولاء للإمبراطور البيزنطى ، بحيث يكون خادمة الأمين ورهن إشارته ، مثلما فعل أمراء الصرب الأولين . ولا شك فى إن هذا كان كل ما يتمناه الإمبراطور البيزنطى ، فاستجاب

للأمير الصربى وأرسل إليه ما أراد من عون عسكرى ، وبذلك أصبحت صربيا فى حماية البيزنطيين . وكان بدأت صربيا مرحلة جديدة فى طريق استقرارها ، وأخذ أهالى صربيا الذين فروا منها إلى كرواتيا ، وأسرهم البلغار أو أستاً منهم الإمبراطور البيزنطى فى إمبراطوريته ، يعودون إلى صربيا . ومن ناحيته بدأ الأمير الصربى تزيسلاف (٩٢٧ - ٩٥٠م) يعمل على تعمير صربيا وتنظيمها مستغلا ما أرسله إليه الإمبراطور البيزنطى من معونة وهدايا فاخرة وثمينة(٥٠) .

ومن هنا فإن صربيا وتوابعها مثل راسكيا Rascia وليم The Lim وإيبار Ibar وزيتا Zeta وزاكلوميا وباجانى وغيرها ، ظلت فى حماية الإمبراطورية البيزنطية حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى(٥١) إلى أن ظهر أمراء صربيون أقوياء أخرجوا أنفسهم من التبعية البيزنطية التى فرضها أمراء صربيا السابقون عليها(٥٢) مثل راسكيا التى أعلنت الحرب على الإمبراطورية البيزنطية للتخلص من الخضوع لها . وقد وقفت هنغاريا بجوار راسكيا ضد بيزنطة ، الأمر الذى ترتب عليه قيام أباطرة الإمبراطورية البيزنطية من أسرة كومنين بأنفسهم بحملات عسكرية ضد هنغاريا لمساعدتها المدن الصربية للتحرر من السيطرة البيزنطية . وأبان هذه الحركات التى قامت بها المدن الصربية ضد بيزنطة ، لجأ البيزنطيون إلى عزل أمراء الصرب ، وتعيين غيرهم موالين لبيزنطية ، لكن هذا الأسلوب وغيره مما أتبعته بيزنطة مع الصرب لم يكن ناجحًا ، فإذا رجعت القوات البيزنطية إلى بلادها سرعان ما انقلب الصرب ثانية ضد بيزنطة(٥٣) .

وعندما تولى عرش صربيا الأمير ستيفن ثيمانى Stephen Temani (١١٦٧ - ١١٩٦م) حاولت الإمبراطورية البيزنطية فرض سيطرتها على صربيا ، فاستغلت النزاع الذى ساد بين أمير صربيا وأخواته ، وشجعتهم على تقسيم صربيا ، وحصل ستيفن على نصيبه ، فزادت مكانته وأصبح هو الأمير الأكبر (الزوبان الكبير) . وعندئذ عمل على التخلص من السيطرة البيزنطية ، لكن

الإمبراطور البيزنطى ما نويل كومنين (١١٤٣-١١٨٠م) Manuel Comnenus لم يتركه يهدأ بذلك ، إذ قام بحملة ناجحة على بلاد الصرب أخضع بها ستيفن ثيمانى ، وأعلن تابعا له عام ١١٧٢م(٥٤) .

وقد احتفل بذلك الإمبراطور مانويل كومنين عند دخوله القسطنطينية(٥٥) ، ولكن وفاة الأخير عام ١١٨٠م كان نكبة على الإمبراطورية البيزنطية ، إذ زادت هجمات الهنغاريين والنورمان عليها ، وسعت بلغاريا إلى التخلص من السيطرة البيزنطية . وفى نفس الوقت كان فردريك الأول يخترق بحملته الصليبية الأراضى البزنطية فى جو من سوء تفاهم بينه وبين الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى انجليوس Isac Angelus (١١٨٥ - ١١٩٥م) وأمام هذا الوضع لم يترك ستيفن ثيمانى هذه الفرصة تمر مد يده ، فهو لم يعمل على التخلص من السيطرة البيزنطية فحسب ، بل عمل على توسيع أملاك الصرب على حساب الإمبراطورية البيزنطية، إذ استولت راسكيا على بعض المناطق ، وخاصة ما تبقى من إمارة "زيتا" وكذلك المدن الساحلية مثل سكوتارى Scutari وبار Bar وأولسينى Ulciny وكوتور Kotor (٥٦) ويضيف بعض المؤرخين أن ستيفن ثيمانى استغل قدوم الإمبراطور فردريك الأولى بحملته الصليبية إلى الشرق ، وأعلن الترحيب به وقدم له المؤن من شعير ودقيق وأغنام وبقر ، وهدايا عبارة عن " فرس البحر وخنازير وثلاثة غزلان حيه متوحشه " ، كما وزع على كل أمير مجموعة من المؤن والخمر واللحم(٥٧) وقد فسر بعض المؤرخين هذا الموقف من أمير الصرب تجاه الإمبراطور الألمانى بأنه نكاية فى الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى انجليوس ، وإنه ربما يكون الأمير الصربى قد طلب المساعدة العسكرية من الإمبراطور الألمانى فردريك الأول ضد الإمبراطور البيزنطى(٥٨) .

ولم يقف الإمبراطور البيزنطى مكتوف الأيدى أمام تصرفات الصرب تجاه الدولة البيزنطية واستغلالها الأوضاع التى أضحت فيها ، فشن حربًا ضدهم ،

وتقابل مع الصرب على نهر مورافيا Moravia سنة ١١٩٠م فهزمهم وأجبرهم على طلب السلام والتخلى عن المكاسب التى حققوها على حساب البيزنطيين . ولم يكن من السهولة بمكان على الصرب تقبل شروط الإمبراطور البيزنطى ، إذ كان ما استولوا عليه خلال عشر سنوات يصعب التخلى عنه غداة معركة واحدة، ولذا ظلت مساحات كبيرة من الأراضى البيزنطية تحت السيطرة الصربية . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى آخذ يدرك مدى قوة الصرب ، فلم تعد صربيًا هى تلك المناطق والشعوب التى تسعى للحماية البيزنطية الآن كما كانت من قبل فى عهد هرقل أو رومانوس الأول . وصار على الإمبراطور البيزنطى أن يعيد النظر فى علاقته بالصرب ، ولذا لجا إلى تحقيق كسب سياسى عن طريق المصاهرة مع الصرب بحيث تتزوج ايودكيا Eudocia ابنة الكسيوس انجليوس Alexius Angelus من ستيفن بن ستيفن ثيمانى(٥٩) .

ومهما يكن من أمر ، فإن ستيفن ثيمانى أمير صربيا تنازل عن الحكم سنة ١١٩٦م لابنه ستيفن الثانى (١١٩٦ - ١٢٢٧م) . وكان ستيفن الأول يعتقد أنه بذلك العمل ستسود العلاقة طيبة بين الصرب والإمبراطورية البيزنطية لما بينهما من صلات نسب ، وقد أقر ابنه ستيفن ليحقق هذا الغرض ، فى حين أن الأمير ستيفن الأول أقر ابنه الأكبر فوكان Vukan على المقاطعات الصربية البحرية التى كانت بيده مثل زيتا Zeta وتريبنى Trebinge . ولا شك فى أن حرمان الابن الأكبر من تولى العرش قد أدى إلى نزاع أسرى استعان فيه فوكان بالهنغاريين وستيفن الثانى بالبلغار ، وبالتالى تدخلت القوى الخارجية فى مشاكل صربيا الداخلية من جديد ، مما اضطر الأخوان فوكان وستيفن الثانى للانسحاب إلى المناطق البحرية . وعلى الرغم من أن البلغار ساعدوا ستيفن الثانى فى استعادة العرش ، إلا أن الأخوين توصلا إلى سلام ، وبذلك قدر صربيا أن تفيق من هذه الاضطرابات الأسرية ، وأخذت تلعب دورًا جديدًا على الساحة البلقانية فشنت

حروبًا على خلفـاء الأمـس (بلغاريـا وهنغاريـا)(٦٠) ، وأصبـح الطريـق مفتوحًـا أمامهم ناحية الامبراطورية البيزنطية ، بعدما سقطت بيزنطة عام ١٢٠٤م فى أيدى اللاتين ، وبذلك انزاحت هذه القوة التى ظلت جاثمة على قلب صربيـا ردحًـا مـن الزمن(٦١) . ولم تفلح صلة النسب بين الصرب والبـيزنطيين فـى توطيـد الصـلات الطيبة بينهما ، إذ تعددت القوى السياسية فى البلقان ، وطمعت فى السيطرة علـى صربيـا . وشـكل حلـف ضـم كـل مـن الإمـبراطور اللاتينـى هـنرى أف فلانـدرز Henry of Flanders فـى القسـطنطينية والإمـبراطور البلغـارى " بوريـل " Boril وحاكم ابيروس Eprius ميخائيل الأول Michael I . ولم يكن أمام ستيفن الثـانى الصربى إلا الصمود أمام هذا الحلف فى المنطقة ، حتى تمكن مـن صـده ، وأوقـف خطره على الصرب . وإن دل هذا على شيئ فإنما يدل على مكانة صربيا فى عهـد ستيفن الثانى بصفة خاصة وفى القرن الثالث عشر بصفة عامة(٦٢) .

ومن هنا يمكن القول أن علاقات صربيا بالدولة البيزنطية والبلغار تأثرت إلى حد كبير بوضع صربيا فى منطقة البلقان وسط القوى السياسـية المحيطـة بهـا . ولم تقتصر علاقات صربيًا على هاتين القوتين فحسب ، بل تعددت علاقاتها بكثير من القوى فى غرب أوربا كما رأينـا ، وبعـد سـقوط بيزنطـة فـى أيـدى اللاتـين عـام ١٢٠٤ م ، صار لصربيا علاقات مع أبيروس Epirus ونيقيـة Nicaea ، وأحيانًـا مع هنغاريا Hungary فضلاً عن الأنجوين Angevins فى صقلية ونابلى(٦٣) .

الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية :

عندما استقرت القبائل الصربية فى منطقة البلقان ، كان من الصعـب عليهـا فى البداية التخلص من الأوضاع القبلية العشـائرية التـى ألفهـا الصـرب . ويصـف البعض نظام الصرب عندئذ بأنه نظام عشائرى ديمقراطى ، يرتبط بالمصالح المباشـرة لقبيلة أو عشيرة معينة . ولم يكن لدى القبيلـة إحسـاس قـوى بـالوحدة أو المصـالح المشتركة بينهما وبين القبائل الأخرى ، الأمر الذى أدى إلى إشاعة جو من الفوضى

ترتب عليهم ضعفهم بالرغم من كثرتهم العددية (٦٤) . وبطبيعة الحـال لم يستمر هذا الوضع القبلى لدى الصرب بعد استقرارهم . ويرجع ذلك إلى الاحتكاك بينهم وبين البيزنطين ، إذ بدأ التأثير البيزنطى تظهر ملامحه على المجتمع الصربـى ، خاصة بعد توزيع الأراضى التى استولى عليها الصرب من أصحابها الأصليين ، ممـا ترتـب عليه أن أصبح الصرب هـم أصحـاب الأرض ، وغـدا أصحابهـا الأصليـون عبيـدًا لهم(٦٥) .

يضاف إلى ذلك أن القبائل الصربيـة تجمعـت فيمـا بينهـا وعملـت اتحـادات فيداراليه Plemes ، ثم تحولوا إلى ولايات تحت رئاسة صغار الأمـراء " الزوبـان " إلى أن خضعـت لسيطرة الأمير الكبير " الزوبـان الكبـير " فـى القـرن العاشـر الميلادى(٦٦) ولعـل هـذا الوضـع الـذى أضحى فيـه المجتمـع الصربـى دفـع بعـض المؤرخين إلى وصفة بأنه كان " شبه إقطاعيات زراعية صغيرة "(٦٧) .

ولم يقف التأثر الصربى عند هذا الحـد ، بـل أخـذ التاثـير البيزنطى يضـرب بجذوره فى المجتمـع الصربـى ، فيطـور البـلاط بحيـث غـدا يضـم طبقـة النبـلاء مـن الرؤسـاء والكونتـات أو البارونـات ، فضـلاً عـن هيئـة مبجلـة وغنيـة مـن رجـال الكنيسة(٦٨) ، ويتضح ذلك خاصة فى راسيكا Rascia إذ كـان البـلاط يتكـون من ممثلى الطبقة الاستقراطية والمسئولين الحكوميين ورجال الدين ، ويجتمعـون مـع الأمير فى المناسبات الرسمية مثـل التتويـج - أو اصـدار القوانـين الجديـدة أو تعيـين رؤساء أساقفة أو تأسيس دير(٦٩) .

هذا فيما يخص بعض الملامح العامة للجانب الاجتماعى عند الصـرب . أمـا الجانب الثقافى ، فقد أجمع كثير من المؤرخين على أن ثقافة صربيـا لم تبـدأ إلاّ فـى أوائل القرن الثانى عشـر الميـلادى(٧٠) وأن جانبًـا مـن هـذه الثقافـة تـأثر بالـتراث السلافى الذى طوره البلغـار ونقلـوه إلى الصـرب وغـيرهم(٧١) . غـير أن الجـانب الأكبر من هذه الثقافة كان بيزنطيًا ، وخاصـة فـى المنـاطق القريبـة للدولـة ، علـى

الدانوب وسافا Sava وفى مونتنجرو Montengro (الجبل الأسود) ودلماشيا والبوسنة وراسيكا وعلى حافة فاردار Vardar عن طريق مقدونيا - ومنطقة مورافيا Moravia(٧٢) ، وهناك تأثير قوى فى حوض نهر ايبار Ibar وسهل كوسوفو Kosov . وعلاوة على ذلك فإن المناطق الصربية من الادرياتيكى تأثرت بالغرب فى الناحية الفنية فقط . ومن المناطق التى تأثرت بها صربيا فى هذا الجانب " بار " Bar وانتبارى Antibari ودوبر فينيك Dubrovnik وديراكيوم (ديراتشيوم) Dyrrachium (٧٣) .

ويمكن القول أن هذا المجتمع الصربى ، الذى كان فى أصله غير منظم ومستقر ، تحول عندما أتيحت له فرصة الاستقرار والنهوض إلى الشكل الآنف الذكر ، وكون مجتمعًا وثقافة متأثرة بالبيئات التى نشأ عليها من ناحية والحضارات المجاورة له من ناحية ثانية ، فضلاً عن تعطشه للتشرب بروح العصر من ناحية ثالثة - فلا غرابة عندما نجد بعض المؤرخين يذكر أن معدل الثقافة فيه برزت على المستوى الأوربى ، وخاصة فى عصر النضج والاستقرار اعتبارًا من القرن الثالث عشر على حد قول البعض(٧٤) .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن على بساط البحث ؛ إذا كان هذا هو بعض جوانب الأوضاع الاجتماعية والثقافية عند الصرب ، فكيف كان حالهم الاقتصادى ؟ لاشك فى إن الحياة فى هذه المنطقة قبل وبعد استقرار الصرب وتقريبًا حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، كانت قائمة على أساس الرعى فوق الجبال والقرصنه على ساحل . وهناك تربية الماشية وزراعة بعض الفواكة مثل الأعناب ، وقد بدأ النمو الصربى وتغير نمط الحياة نتيجة للتأثير البيزنطى من ناحية وزيادة عدد سكان الصرب من ناحية أخرى بحيث غدا لا يقل عن نصف مليون صربى(٧٥) .

وإلى جانب الحياة الرعوية والزراعية ، وجدت بعض المعادن فى صربيا ، مثل الفضة والنحاس والحديد ، وبدأ التفكير فى استخراج هذه المعادن من مناجمها(٧٦) . ولعل وجود هذه المناجم مع توسط موقع صربيا ، دفع بعض عمال

المناجم فى ألمانيا وسكونيا للعمل فى صربيا ، وهؤلاء استقروا فى صربيـا وأسسـوا مـا يشـبه المستعمرات لهـم ، ثـم أصبحـت مدنًـا فيمـا بعـد مثـل نوفـو Novo وبرسكوفو Brskovo فى وادى تارًا Tara فى مونتنجرو Montengro ورودنيك Rudnik . و لم تلبـث تطـورت الحيـاة فـى صربيًـا واتجهـت إلى الصناعـة والتجـارة وسك العملة والبحرية اعتبارًا من القرن الثالث عشر الميلادى(٧٧) .

* * *

وصفوة القول أن صربيا نشأت فى منطقة البلقان ، وسط بعض القوى مثـل الدولة البيزنطية والبلغار . ويبدو أن المجتمع الصربى فى البداية لم يكن عنـده خـبره بسياسة الحكم ، مما دفـع القـوى المجـاورة لهـا إلى أن تنتهـز الفرصـة وتسـتغل هـذا الوضع لغرض السيطرة عليها من جانب والزج بأفراد الأسرة الحاكمة فى صراعات داخلية من جانب آخر .

ولا يمكن إنكار الدور الذى قامت به الدولـة البيزنطيـة فـى صربيـا لإدخـال الصرب خطيرة المسيحية وغرس هذه الديانة فى قلوب الشـعب الصربـى ، والـذى لاشك فيه هو أن هذا الدور البيزنطى كان مقترنًا بالسـيطرة السياسـية حتـى نهايـة القرن الحادى عشر الميلادى .

ثم جاء أمراء صربيون رفضوا السيطرة البيزنطية والبلغارية واستقلوا تمامًا عن كليهما . والأدهى من ذلك أن الصـرب تطلعـوا إلى استقطاع أجـزاء مـن أمـلاك الدولة البيزنطية وخاصة بعد سقوطها فى يد اللاتين سـنة ١٢٠٤م . والملاحـظ أن المجتمع الصربى بتركيبته الاجتماعية القبلية وأمرائه وسكانه ، أهتم بالجـانب الدينـى والثقافى والاقتصادى على الرغم من الأوضاع السياسية التى كان يعيش فيها سواء داخلية أو خارجية ، وما عـرف عـن أخـلاق الصربيـين مـن قسـوة تصـل إلى حـد الوحشية ، ولا شك فى أن هذه البنية كانت نواة لما ظهرت عليه صربيا فيمـا بعـد فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد وحتى السيطرة العثمانية .

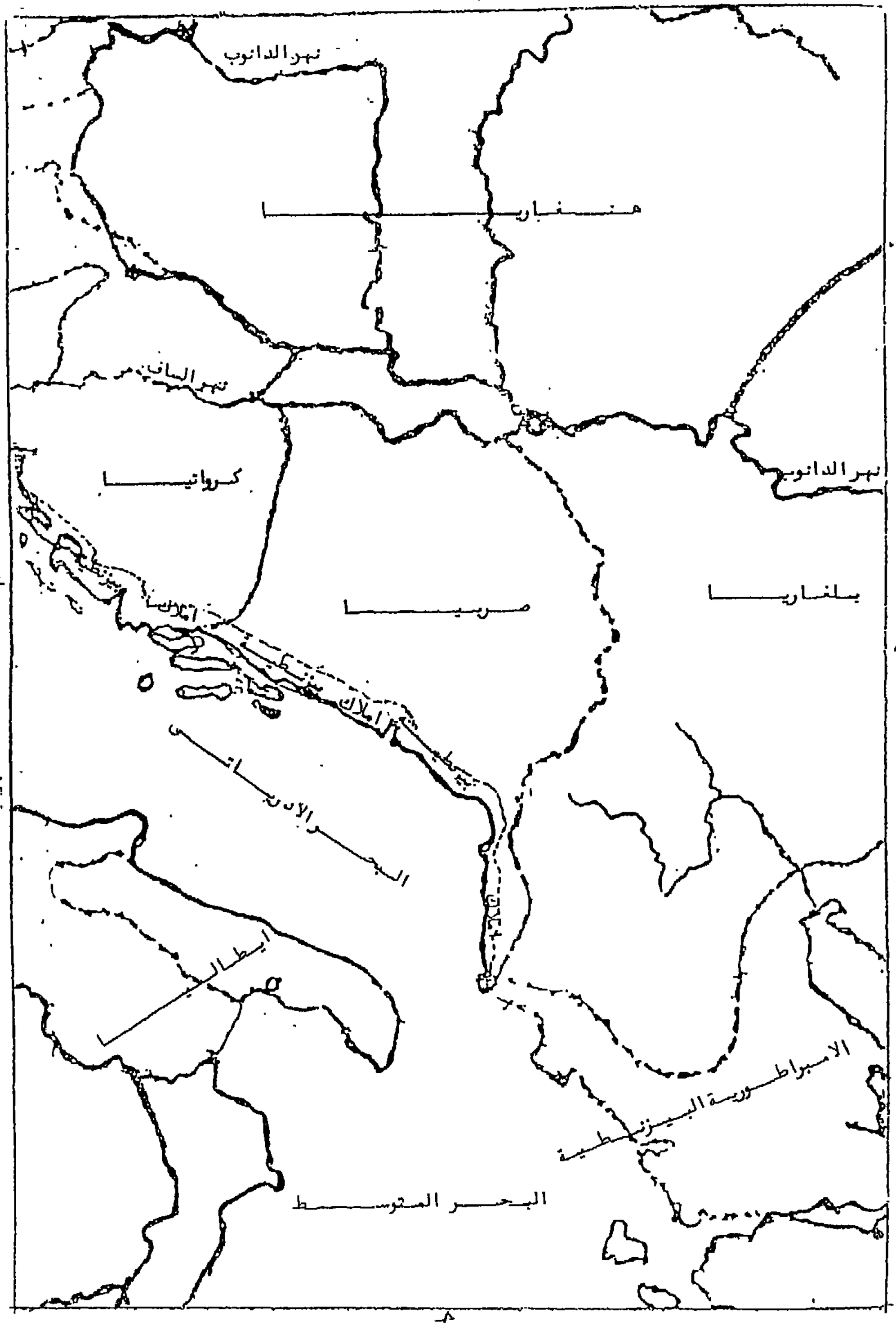

خريطة صربيا في العصور الوسطى

CF : Dvormik (F) : op. cit, p. 269. 330 .

- الزاكلومى : Zachlumi تعنى فى لغة السلاف ما وراء الجبـل ، والجبـل المقصـود بـه هنا جبل كلومس Chlumos ، وهناك نهر يسمى زاكلوما . وقـد سـكن هـذا الإقليـم الرومـان الذين نقلهم دقلديانوس من روما ، وظل هذا الإقليم خاضعًا للإمبراطور البيزنطى حتى استولى عليه الأقار الذين طردهم الصرب وأقرهم الإمبراطور البيزنطى فيه . Ibid, p. 161

- التربونيون والكاناليت : هى بلاد واحده ، وتيربونا تعنـى فـى لغـة السـلاف المكـان الحصين ، وكانالى Kanali تعنى العربه المشحونه ، وتوجد مدن عامره فى هاتين المنطقتـين هـى أورموس Ormos وريستا Rhisena ولوكابتاى Loukabetai وزتليبى Zetlibe . Ibid, p.163.

- الباجانى : ويسـمون الارنتـانى ؛ وتعنـى فـى اللغـة السـلافيه والرومانيـة والإنجليزيـة الوثنيين . وفى باجانيا مدن عامرة هى موكرون Mokron وبروليا Beroulia واستروك Ostrok وسلافينتزا Slavinetza ، ويمتلكون جزيـرة كبـيرة تسـمى كوركـرًا Kourkral وأخـرى يطلـق عليها مالوزيتيا .Malozetai Ibid, p.165

(١٣) ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ص١٣٣

(١٤) اينهارد : المصدر السابق هامش ص٩٨

(15) The Encyclopedia Americana, V.24 , pp.571 - 572.
CF : The New Encyclopedia Britannica, v. 9, p.65.
CF : Ostorgorsky (G) : History of the Byzantine state, new Jersy , 1954. p.94 .

(16) Dvornik (F) : Op. Cit., p.13 .

(١٧) تبلغ المساحة الإجمالية لبلاد الصرب تقريبًا ٣٤,١١٦ ألف ميل مربـع أى حـوال ٨٨,٣٦٦ كم

CF : The New Encyclopedia Britannica, V.9 , p. 65, V. 24, p.571 .

(18) Lec.cit.

(١٩) سعيد عاشور : المرجع السابق ص٦١٣
وانظر عن اللغة العربية

(20) Ibid, v. 9, p. 60. CF : Byzantion, Tome , 4, p.278

وإبراهيم أنيس : اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ص١٤٠، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥١

(21) The Encyclopedia, Britannica, v. 9, p.65 .

(22) Constantine Porphyrogenitus : op. cit., p.161.

(23) Ibid, pp.157, 159 .
(24) Ibid, pp. 159,161.

وعن الصراع البيزنطى البلغارى انظر CF : Ostrogorsky (G) : Op. Cit., 236 - 237

وكذلك : وسام عبد العزيز فرج : السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها ، مجلة الجمعية المصرية مجلد ٣٠ - ٣١ لسنة ١٩٨٤م ص ١٤١ - ٢٠١

(25) CF : Constantine Porphyrogenitus : cit.,pp.161, 163, 165.
(26) Ibid, P.155.
(27) Boissonnade : Life and work in Medieval Europe, Londan, p.58.

وانظر : ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ص٣٣١ - ٣٣٢

(28) The New Encyclopedia, Britannica, v. 9, p.65.

(٢٩) اينهارد : المصدر السابق ص٨٦

(30) The Encyclopedia Americana, v. 9, p. 66, v. 24 , p. 572.
(31) Cam - Med - Hist, v. 4, part. I, pp. 531 - 532 .
(32) Dimtri Obolensky : The Byzantine Commonwealth, London, 1971, p.248.
(33) Camb - Med - Hist, v. 4 , Part. I , p.540 .
(34) Ibid, p. 522.
(35) Runciman (S) : Byzantine civilisation, London, 1961, p.282.

(٣٦) اينهارد : المصدر السابق ص١٠

(٣٧) المصدر نفسه ص٩٨

(38) Dvornik (F) : Op. cit , pp. 48, 56 .
(39) Ibid, p. 92 .
(40) Ibid, p. 20.
(41) Constantine Porphyogenitus : Op. cit., p. 155.

وانظر السيد البار العرينى : الدولة البيزنطية ، بيروت ١٩٨٢م ص١٢٩

(42) Ibid, p. 155.
(43) Ibid, p. 157.

(٤٤) لقد أورد قسطنطين بروتينيوس هنا أن الإمبراطور البيزنطي طلب مساعدة الصرب للأتراك ضد البلغار ؛ ويبدو أن المقصود بالترك هنا هم الهنغاريون (المجريون) وليس الأتراك المعروفين لدينا ، لسببين ؛ **الأول** : أن عنصر من عناصر الأتراك لم يظهر بعد فى هذه المنطقة من أوربا ؛ **وثانيًا** : أنه فى هذه الحقبة التاريخية ظهر الهنغاريون فى تلك المنطقة ؛ كثرت اغاراتهم على غرب أوربا والدولة البيزنطية ، وقد أطلق عليهم البعض " ترك أوربا " ومن هنا

يغلب على الظن أن المقصود بالترك هنا هم الهنغاريون ، انظر : أحمد مختار العبادى : خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م . مجلة المتاهل ، المغرب عدد ٢٩ سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

(45) Constantine Porphyrogenitus : op. cit , p. 157.
CF: Franzius (E) : History of the Byzantin Empire, New York, 1967, p. 208.
(46) Constantine Porphyrogenitus : op. cit., p.159.
(47) Ibid, p. 159.
(48) Lecit .
(49) Franzius (E) : op. cit., p.208.
(50) Constsntine Porphyrogenitus : op. cit., pp. 159, 162.
CF : Franzius (E) : op. cit., p. 208.

وعن الصراع البيزنطى البلغارى . انظر :

Ostrogorsky (G) : op. cit., p. 236 .
CF: Diehl (C) : Byzantiun Greatness and Decline, New Jersey, 1957, 0. 186.
(51) Camb . Med - Hist, v. 4 , part, I , p. 519.
(52) Setton (k) : History of the Crusades, V. I .New York, 1955 , p.510 .
(53) Camb - Med - Hist , v. 4 . part , I , p. 520 .

للمزيد انظر : ليلى عبد الجواد إسماعيل : حملات ما نويل كومنين على بلاد المجر ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية .

(54) Ibid , pp. 521 - 522.

(٥٥) حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٩٣م ص٢٢٨

(56) Camb - Med - Hist, V.4, part,1, p.521 .
CF : Diehl (c) : op. cit, p.186.

(٥٧) ستيفن رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ترجمة السيد / الباز العرينى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٠ ص٣٦

(58) Michaud (J.E) : Historia de Criosades, Tome, 2, Paris, 1816, p. 78 .
CF: Setton (K.M) : History of the Crusades, v. 2, London, 1962, v. 2 , p. 99
(59) Camb - Med - Hist , v. 4, Part, I , p.521.
CF Diehl (C) : Op. Cit., p.186.
(60) Camb - Med - Hist, v. 4, part, pp. 530 - 531.
(61) Obolensky (D) : Op. cit., p. 247 .
(62) Camb - Med - Hist , v.4, part , 1 pp.526, 531, 533. 543.
CF Diehl (C) : op. cit., pp. 186 , 200, 206 .

وعن العلاقات بين البيزنطيين والبلغار انظر :

Byzantion , Tome, 9, Bruxeles, 1934, pp. 301 - 309, 311, 319, 322.

CF: Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, B. G. Niebuhrii, v. 3, Bonnae, 1855, pp. 148, 169, 557, 566.

وانظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص٦١٣ - ٦٢٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣

وحسنين محمد ربيع : المرجع السابق ص٢٩١ - ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

CF : Lodge (M.A) : The Close of the Middle Ages (2172 - 1494) London, 1910, pp. 501 - 502 .

(63) CF : Obolensky (D) : Op. cit., p. 247.

وانظر : ستيفن رنسيمان المرجع السابق جـ٣ ص٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٧١٧

(64) The Enclopedia Americana , v. 24. p.572.
(65) Boissonnad e : Op. cit., pp. 58, 271 .
(66) Franzius (E) : Op. cit., p. 208 .
(68) Boissonnade : Op. cit., p.58 .
(69) Obolonsky (D) : Op. cit., pp. 249.
(70) Runciman (S) : Op. cit., p. 284.
(71) Dvornik (F) : Op. cit., p.19.
CF : Setton (K) : Op. cit., p. 510.
(72) Boissonnade : Op, cit., pp. 57 - 58 .
(73) Obolensky (D) : Op. cit., pp. 247 - 249 .
(74) The Encyclopedia Americana, v.24., p.572.
CF : Obolensky (D) : Op. cit., pp. 250 - 254 .
CF : Runciman (S) : Op. cit ., pp. 284 - 285 .
CF : Camb - Med - Hist , v.4 , part , I, pp. 545 - 549.
(75) Boissonnade : Op. cit , p. 58 .
(76) Ibid , p . 269.
(77) Obolensky (D) : Op. cit., pp. 247 - 250.
CF : Camb - Med - Hist , v. 4, part , 1 pp.532 - 433 , 540

(المصادر والمراجع الأوربية)

- Atiya (Aziz Syryal) :

The Crusade of Nicopolis, London, 1939.

- Boissonnade :

Life and Work in Medieval Europe, London .

- Byzantion :

Tome 4, Paris, 1929.

Tome 9, Bruxeles, 1934 .

- Corpus :

Scriptorum History Byzantinae, v.3, Bonnae, 1844, 1855.

- Constantine Porphyrogenitus :

An Administamdo Imperio, Translated by R. J. H. Jenking, Budapest , 1949 .

- Diehl (Charles) :

Byzantium : Greatness and Decline, New Jersey, 1957 .

- Obolensky (Dimitri) :

The Byzantine Commonwealth, London , 1971 .

- Dvornik (Francis) :

The Making of Central and Eastern Europe London , 1949 .

- Franzius (Enne) :

History of the Byzantine Empire, Mother of Nations, New York, 1967 .

- Ahrweiler (Helene) :

Byzance et La Mer, Paris, 1966.

- Pirenne (Henri) :

A History of Europe from the Invasions to the 16 Century, London, 1948 .

- **Lodge (M - A) :**

The Close of the Middle Ages (1272 - 1494) London, 1910 .

- **Michoud (J - F) :**

Historia des Croisades, Tome 2-3 , Paris , 1816-1822 .

- **Baynes (Norman) and . L . B. moss :**

Byzantium, Oxford, 1948.

- **Ostrogorsky (G) :**

History of the Byzantine State New Jersey, 1957.

- **Runicman (Steven) :**

Byzantine Civilistion, London, 1961 .

- **Southern (R - W) :**

The Making of the Middle Ages, London

- **Setton (M . Kenneth) :**

A History of the Crusades, V. I New York , 1955 , v . 2 London , 1962 .

- **The Cambridge Medieval History :**

v . 4, part I . Cambridge, 1964 .

- **The Encyclopedia Americana :**

v . 24, America, 1824 .

- **The Encyclopedia Britannica :**

v . 9, Chicago, 1973-1974 .

(المراجع العربية والمترجمة)

- **إبراهيم أنيس :**

اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

- **أحمد مختار العبادى :**

خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م . مجلة المناهل ، المغرب سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

— اينهارد :

سيرة شارلمان ، ترجمة/عادل زيتون ، الطبعة الأول دمشق ١٩٨٩م/١٤١٠هـ .

— حسنين محمد ربيع :

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية . القاهرة ١٩٩٣م .

— زبيدة محمد عطا :

الترك فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٦م .

— ستيفن رنسيمان :

تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ط٢ ١٩٨٠ م .

— سعيد عبد الفتاح عاشور :

أوربا العصور الوسطى ، جـ١ الطبعة السادسة القاهرة ١٩٩١م

— السيد الباز العرينى :

الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١م) بيروت ١٩٨٢م .

— ليلى عبد الجواد إسماعيل :

(١) الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين القاهرة ١٩٨٥م.

(٢) حملات ما نويل كومنين على بلاد المجر ، مقال بالجمعية التاريخية المصرية .

— وسام عبد العزيز فرج :

السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها . مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية مجلد ٣٠ - ٣١ سنة ١٩٨٤م .